التراث العربي

مجلة تراثية فصلية

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

WWW.ATTAWEEL.COM

المجلد السابع عشر
العدد الاول
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

أسد الدين شيركوه

أبو الوليد الحميري
حياته وشعره

صنعة

فاخر جبر مطر
مركز دراسات الخليج العربي
جامعة البصرة

أحمد حاجم الربيعي
كلية التربية ـ جامعة البصرة

تقديم :

لم يكد ينصرم النصف الثاني من القرن الرابع الهجري حتى نرى الدولة الاموية في الاندلس ـ تلك الدولة التي شيدها عبدالرحمن الداخل وابناؤه ، وحافظوا عليها لقرون عديدة ـ تتهاوى بعد ان اصابها الضعف والانحلال ، وتنقلب الاوضاع السياسية فيها راساً على عقب ، ويشتد الصراع والتنافس بين الامراء والقواد والقضاة ، فتعم الفوضى جميع انحاء الاندلس ، وتفقد الخلافة هيبتها ، ويكفي ان نتصور ما وصلت اليه الحالة من الانحلال والتشتت ان نعلم ان عدد الخلفاء الذين تولوا الحكم من سنة ٣٩٩ هـ حتى سنة ٤٢٢ هـ اثنا عشر خليفة .

وقد اثرت الفتنة على قرطبة فاصابتها بالدمار والتخريب بعد أن كانت حاضرة الاندلس في عهد الامويين ، وقد وصف ابن حيان كيف ان احدهم كان يتولى الاشراف على هدم قصور الامويين ، فقال : « وبيده بادت قصور بني امية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت اعلامهم المنيعة »[1] وكان من آثارها المحلع الذي اصيبت به النفوس من جراء تغلب البربر وترصدهم للناس بالقتل والسلب ، والدور بالهتك والنهب ، فاصابت الناس جميعاً بما فيهم العلماء والادباء ، وقضت على اكثرهم بالموت والتشريد ، فتعطل النشاط الثقافي ، واغلقت المدارس ، وانفضت حلقات الدرس ، وخرج الناس يلتمسون الامان .

ولم يستطع بنو حمود تهدئة الثائرين في قرطبة ، او التمسك بزمام الامور ، فامتدت الثورة الى جميع مدن الاندلس ، واخذت كل مدينة تسعى الى الاستقلال عن قرطبة فاجمعت اشبيلية امرها ووحدت كلمتها للتخلص من الحموديين ، ووجدت في قاضيها أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد (٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ) رجلاً حازماً مدبراً للامر ، فولته امورها اواخر سنة ٤١٢ هـ ، ولم تستطع اشبيلية ان تعلن عن استقلالها رسمياً حتى سنة ٤٢٢ هـ عندما الغيت الخلافة الاموية في قرطبة من قبل بني جهور حين تسلموها .

ويرجع نسب بني عباد الى النعمان بن ماء السماء اللخمي آخر ملوك الحيرة[2] وقد تغنى كثير من الشعراء في مدائحهم بهذا النسب الرفيع ، ونال بنو عباد المرتبة العليا عند بني امية ، وشاركوهم الحياة السياسية ، فقد تولى اسماعيل والد القاضي

WWW.ATTAWEIL.COM

محمد قيادة فرقة حرس الخليفة هشام الثاني ، ثم صار اماماً لمسجد قرطبة ، ثم قاضياً لاشبيلية[3] بعدما عرف عنه من نزاهة وحسن تدبير ، الا انه في اواخر ايامه فقد بصره ، فتولى عنه ولده القاضي ابو القاسم محمد قضاء اشبيلية وبأقرار من الخليفة القاسم بن حمود في قرطبة .

واستطاع القاضي محمد بحنكته وذكائه تثبيت مركزه ، وتقوية نفوذه ، وتوسيع رقعة دولته ، ثم سار من بعده ابنه ابو عمرو عباد المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) على خطة ابيه ، وقد اوتي قسطاً كبيراً من الذكاء ، وصدق الاحساس ونفاذ البصيرة ، فاصبحت اشبيلية اعظم ممالك الطوائف واغناها من حيث مواردها الطبيعية ، واستقرار امورها السياسية .

وقد كان للقاضي ابي القاسم محمد وولده المعتضد باع في العلم والادب ، وكان بلاطهما مقصداً للشعراء والادباء وعلية القوم ، بالاضافة الى حسن تدبيرهما امور السياسة والحكم ، وفي كنفهما عاش ابو الوليد الحميري ، وبتشجيعهما نشط وابدع والف كتابه (البديع في وصف الربيع) .

حياتـــه :

هو ابو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري . ويلقبه ابن بسام بحبيب[1] وتابعه في ذلك ابن سعيد في المغرب والرايات ، والمقري في نفح الطيب ، بينما اورد ابن الابار هذا اللقب لابيه[2] .

ولم نستطع ان نقف بدقة على تاريخ ولادته او بداية نشأته ، ومن المؤكد انه نشأ في ظل رعاية والده ، فقد كان والده حبيب من المقربين الى بني عباد ولا سيما مؤسس دولتهم القاضي محمد ، وممن وقف الى جانبه في اعلانه الاستقلال عن قرطبة ، فاستوزره القاضي زمناً طويلاً ، ونال مرتبة اجتماعية وادبية عالية لدى معاصريه ، وحظي بتقديرهم واعجابهم .

وقد ساعدته هذه المكانة المرموقة التي يتمتع بها والده في ظل العباديين على ان ينشأ نشأة ادبية رفيعة . فقد اشرف والده على تربيته وتوجيه موهبته الادبية ، ثم كان تأثير اخيه ابي زيد محمد بن محمد الحميري عليه كبيراً ، اذا ما علمنا ان هذا الاخ كان فقيهاً ، وقد تتلمذ على ابي عبدالله محمد بن احمد بن عبدالله الباجي في اشبيلية ، ومن تلامذته ابي بكر ابن العربي[3] .

وكان لسهولة الحصول على الكتب والمصنفات والدواوين اثر كبير في تزويده بالثقافة الادبية ، بعد ان كان الحصول على تلك الكتب امراً عسيراً ، فقد تعرضت مكتبات قرطبة - ومنها مكتبة الخليفة الحكم المستنصر - الى النهب في فترة الفتنة مما ساعد على انتعاش الحركة العلمية وانتشار الكتب بين جميع الناس . وعرضت مكتبة الامام ابن فطيس ايضاً للبيع مدة عام كامل في مسجده ، وقد بلغ ثمنها اربعين الف دينار[4] .

فاطلع على دواوين الشعراء سواء المشارقة منهم او الاندلسيين ، وعلى كتب اللغة والادب ، حتى اخذ « وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق »[5] . واتصل في حداثته باحد الشعراء الموهوبين ، وهو ابو جعفر بن الابار « فاقام قناته ، وصقل مرآته ، واطلعه شهاباً ثاقباً ، وسلك به الى فنون الآداب طريقاً لا حباً »[6] ، حتى اصبح آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنه .

وتكشف لنا تلك العلاقة الحميمة بينه وبين ابن الابار شيئاً عن اسرته ، فقد ورد في بيتي ابن الابار اللذين بعث بهما اليه من انه كان متزوجاً ، وقد انعم الله عليه بطفلة بعد ان توفي جاريته :

او ما رأيت الدهر اقبل معتباً متفضلاً بالعذر لما اذنبا
بالامس اذوى في رياضك ايكة واليوم اطلع في سمائك كوكبا[7]

ولم تقتصر علاقات ابي الوليد على ابن الابار وحده ، فقد اتصل بعدد آخر من الشعراء الموهوبين من امثال ابي الحسن علي ابن ابي غالب ، وصاحب الشرطة ابي بكر ابن القوطية ، وابي بكر نصر ، والوزير الكاتب ابي الاصبغ ابن عبدالعزيز ، ومما يروى انه كانت بينه وبينهم منادمات ومسامرات ومعارضات شعرية تنم عن ذوق ادبي رفيع ، وكانت اغلب معارضاتهم في وصف الطبيعة .

إن هذا الفهم المبكر وحدة الذكاء جعلا بعض المؤرخين يذكرون انه قد وزّر لملك اشبيلية وقاضيها محمد بن عباد ، وهو دون العشرين[8] وهذا غير ممكن فيما لو اننا قبلنا برواية ابن بسام التي تتفق مع الروايات الاخرى على انه توفي سنة ٤٤٠ هـ ، الا انها تنفرد عنها فتنص على انه توفي وهو ابن اثنتين وعشرين سنة[9] ومعنى هذا ان عمره سيكون حتى وفاة هذا القاضي سنة ٤٣٣ هـ خمس عشرة سنة ، وهو لم يبلغ الحلم بعد ، فكيف يستوزره

القاضي محمد بن عباد في امور دولته ، تلك الدولة التي تحيط بها المخاطر من كل جهة ، وقد بذل القاضي جهداً مريراً في الحفاظ على ملكه ، بالاضافة الى ما يمتاز به من علم وادب وحكمة ودهاء وبعد نظر .

اما اذا قبلنا برواية ابن سعيد التي تتفق مع الرواية الاولى وغيرها من الروايات في سنة وفاته ، وتختلف في انه توفي وهو ابن تسع وعشرين سنة[13] ، فسيكون عمره حينذاك حتى وفاة القاضي اثنتين وعشرين سنة ، وهي رواية تبدو مقبولة ومنسجمة مع الواقع ، وهو عمر يمكن فيه الاعتماد على صاحبه في تحمل مسؤولية الوزارة او الكتابة ، ونتوقع فيه نشاطاً علمياً وادبياً .

اما عن موته فلم تذكر المصادر اي اشارة توحي الى انه مات بسبب مرض او علة اصابته . ومما يؤكد ذلك رواية ابن الابار التي تقرر بانه توفي معتبطاً[14] اي مات شاباً لا علة فيه . الا ان ابن سعيد ينفرد عن غيره فيما يرويه فهو يقرر ان المعتضد قتله[15] ، وهذا امر غريب لم نجد له اثراً في بقية المصادر الاخرى التي سبقته ، او تلك التي عاصرته ، وقد اشار ابن سعيد الى انه كان ينقل عن ابن بسام ولم نعثر على اي نص صريح في ذلك ، وكل ما ذكره ابن بسام عن المعتضد بن عباد انه قد استهل حكمه بقتل (حبيب) وزير ابيه[16] وهذا هو مصدر الوهم الذي وقع فيه بعض المؤرخين ، فقد كان هذا اللقب لوالده وليس له .

ولو كان ابو الوليد هذا قتيل المعتضد لما صمتت عن ذلك كتب المؤرخين الذين كانوا يعاصرونه ، خاصة وانهم قد سجلوا اكثر اخبار من قتل على يد المعتضد من ابنائه ووزرائه وندمائه في جميع المناسبات .

والمعتضد بن عباد شخصية جمعت بين الشدة واللين ، والقسوة والرقة ، والجد والهزل ، الا ان جانبي الشدة والجد قد تغلبا على تصرفه وسلوكه ، حتى وصفه ابن بسام بـ « قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة »[17] ، فقد تولى حكم اشبيلية بعد وفاة والده القاضي سنة ٤٣٣ هـ ، فاستخدم جميع الوسائل الممكنة من اجل تثبيت دعائم ملكه ، فطالت ايامه وتغلب على اكثر ممالك غرب الاندلس .

وتتجلى شدته وقسوته بما اقدم عليه من قتل وتنكيل باقرب الناس اليه ، فقد اقدم على سفك دم اخيه عبدالله[18] واشرف بنفسه على قتل ابنه اسماعيل بعدما تناهى اليه تآمره عليه[19] يسلم منه (حبيب) وزير ابيه فقتله .

ولا نعلم لماذا قتله ، ولم تذكر المصادر العديدة سبب موته ، الا اننا نستشف هذا من خلال تصرفات المعتضد مع منافسيه ، او ممن يحذر منهم على سلطته وحكمه ، ولعله كان لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن الى جواره ، فقتله وانتهى من وزير ابيه الذي كان يتصور عقبة كأداء تقف في طريقه .

غير اننا نعجب من صمت ابي الوليد على مقتل ابيه ، ونعجب اكثر عندما يكون هذا الابن وزيراً او كاتباً عند قاتل ابيه ، واذا كان هذا يمثل جانب الشدة والقسوة عند المعتضد ، فان هناك جانب آخر يقابله وهو جانب اللين والرقة . فقد كان يوصف بجمال الهيأة ، وتمام الخلقة ، وذكاء الذهن ، وصدق الحس ، ونفاذ البصيرة[20] ، ولهذا فلا عجب ان يكون ابو الوليد وزيراً يسّى او يتناسى ما بينه وبين المعتضد من ذحل . يضاف الى ذلك ان المعتضد انسان له احاسيس وعواطف انسانية يتأثر بالجمال فيتذلل اليه ، ويحب فيتلهف للقاء محبوبه ، ويشتاق فيتطلع لرؤيته ، ويتألم ويأسى لفراقه وكان يلهو ويغرق في مجونه ، فهو اذا ليس كما نتصوره من جانب واحد ، جانب الشدة او جانب اللين ، وانما كليهما معاً ، ولأن ظروف الاندلس الحرجة ، والحفاظ على مملكة اشبيلية تدفعه الى التنكيل بمناوئيه ، وبمن يقف في طريقه .

نتاجه الأدبي :

على الرغم من قصر عمر ابي الوليد والذي لم يتجاوز التاسعة والعشرين ، فقد أسهم مع ادباء عصره في اغناء الحياة الادبية بنتاج وافر غزير ، وكان لكتابه الوحيد (البديع في وصف الربيع) دور بارز في تناول جانب أدبي رفيع من جوانب الادب ، وهو جانب الطبيعة ، وله فن متميز في عملية تبويب فصوله وعرض موضوعاته .

ولم يكن البديع كل انتاجه الادبي ، وان كان يحتوي على قطع ونماذج من شعره ونثره ، وانما هناك مقطوعات من شعره ونثره مبثوثة في بعض الكتب الادبية الضخمة كالذخيرة مثلاً ، وسنعرض لها لاحقاً .

١ ـ كتاب البديع :

يعد كتاب (البديع في وصف الربيع) من الكتب المهمة التي وصلت الينا ، وهي تتحدث في جانب واحد من الجوانب الادبية العديدة وفق منهج علمي دقيق لم يسبق اليه احد ، وقد اشار المؤلف في مقدمة كتابه الى ذلك بقوله : « ان احق الاشياء بالتأليف واولاها بالتصنيف ما غفل عنه المؤلفون ، ولم يعن به المصنفون مما تأنس النفوس اليه ، وتلقاه بالحرص عليه »[١] ولكننا من خلال تتبعنا للكتب التي الفت في المشرق او الاندلس ، وجدنا عدداً منها قد اختص بموضوع الطبيعة ، او اختص بالازاهر ، مثل كتاب (الزهرة) لابن داود الظاهري في المشرق ، وكتاب (الحدائق) لابن فرج الجياني (٣٩٦ هـ) والذي كما قيل نسج على منوال كتاب الزهرة ، فهل اعتمد ابو الوليد على الكتابين معاً ، ام كان اعتماده على الحدائق وحده ، لانه كان اقرب اليه في موضوعاته وبيئته الاندلسية ، وتأتي اهمية كتاب (الحدائق) في اعتماد اكثر المؤلفات الاندلسية عليه ، وهو كتاب مفقود ، ولو لم يكن مفقودا لكنا قد استطعنا ان نصل الى نتيجة علمية في معرفة اثر هذين الكتابين في (البديع) .

ومن المؤكد ان (البديع) يختلف عن هذين الكتابين في منهجه وتبويبه ، على الرغم من انه جاء مكملاً للحدائق في الفترة الزمنية ، فالحدائق تناول شعر الطبيعة في الفترة الاموية ، اما البديع فقد تناولها في ايام الدولة العامرية (اواخر الدولة الاموية) ، وعصر الطوائف ، ومن هنا تأتي اهمية البديع .

اقتصر الكتاب على شعراء الاندلس وادبائه وممن عاصروا مؤلفه ، ولم يتناول شعراء المشرق الا نادراً ، وقد بيّن لنا السبب في ذلك بقوله : « واما اشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها ، والنظر اليها حتى ما تميل نحوها النفوس ، ولا يروقها منها العلق النفيس ، مع اني استغني عنها ، ولا احوج اليها بما اذكره للاندلسيين من النثر المبتدع ، والنظم المخترع واكثر ذلك لاهل عصري ، اذ لم تغب نوادرهم من ذكري »[٢] .

ومن الطبيعي ان يتأثر المؤلف بالحركة التي تدعو الى الاستقلال بالثقافة الاندلسية عن الثقافة في المشرق ، ففي الفترة التي سبقت الفتنة وجدت النهضة العلمية والادبية التي استغرقت في تطورها زهاء قرنين من الزمن نفسها الا تبقى عالة على الثقافة المشرقية ، فما عادت النتاجات المشرقية تغري الاندلسي ، فتنسيه نتاجات بلاده ومفكريها من شعراء وادباء ومؤرخين ، ولا عادت الاعلام المشرقية تطغى فتمحو اثر الاعلام الاندلسية ، انه الاعتداد بالنفس ، ذلك الاعتداد الذي سرعان ما تحوّل خلال الفترة ما بين خلافة عبدالرحمن الناصر الى نهاية الدولة الاموية الى ما يشبه الحماس الوطني ، فالتفتت الاندلس الى تراثها ونتاج علمائها وادبائها ومفكريها ، فتحدثت عنه وخلدته ، فكانت نزعة ابي الوليد الحميري لا تختلف عن نزعة ابن حزم وغيره من اعلام الاندلس الذين دعوا الى مثل هذا الاستقلال .

وكعادة اغلب المؤلفين الذين يذكرون الدوافع والاسباب التي تدعوهم الى تأليف كتبهم ، ووضع مصنفاتهم ، فقد ذكر ابو الوليد : « ان فصل الربيع آرج وابهج ، وآنس وانفس ، وابدع وارفع من ان احد حسن ذاته ، واعد بديع صفاته . . لم يعن بتأليفه احد ، ولا انفرد لتصنيفه منفرد ، فلما رأيت ذلك جمعت هذا الكتاب »[٣] وهو سبب وجيه ، ودافع قوي للانفراد بهذا التصنيف .

ثم يذكر من الاسباب التي دعته الى التأليف ايضاً انه كان بناء على رغبة « ملكين نفقا سوق الادب الكاسدة ، واصلحا حال العلم الفاسدة ، فكثر المنتحلون لها والمتحلون بها ، ولولاهما ـ اطال الله بقاءهما وادام اعتلاءهما ـ ما انفردت لهذا التأليف ، ولا شغلت فكري بهذا التصنيف »[٤] ، ويعني بهما القاضي محمد ابن عبّاد ، وولده وحاجبه عبّاد المعتضد ، ولكننا لا نعلم على وجه الدقة متى انتهى من تأليفه هذا الكتاب ، فلربما انتهى منه في عهد القاضي ابن عباد ، او في عهد ولده المعتضد من بعد ذلك .

ولعل السبب الذي دفعه الى تأليف الكتاب هو مجارانه لادباء المشرق الذين وصفوا الطبيعة ، ومفاتنها بدقة واعجاب ، الّا ان بعضهم لم يكونوا ليستطيعوا الاندماج بها ، والتعبير عن خفايا شعورهم تجاهها ، لذلك نزعوا الى الوصف المادي ، والعبث اللفظي متأثرين بتيار التأنق والصنعة الذي ساد آنذاك ، ثم اشتدت وطأته في عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية في الشعر[٥] .

وكان ابو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري من الشعراء الذين اضافوا الى اوصافهم المادية للطبيعة حساً وذوقاً ، وجعلهم يأتلقون معها ، ويستغرقون في

نشوة جمالها ، ويبادلونها العاطفة بعاطفة ، والحب بحب ، ويدافع من المجاراة بالمثل ، واظهار فضل الاندلسيين في الطبيعة على المشارقة لذلك وضع كتابه بقوله : « ولستُ اودعه الا ما اذكر لاهل الاندلس خاصة في هذا المعنى ، اذ اوصافهم لم تتكرر على الاسماع ، ولاكثر امتزاجها بالطباع ، فتردها شيقة تردودها نيقة ، وانما ذلك لتضييع اهل بلدهم لاكثرها ، وغفلتهم عن جُلّها انكاراً لفضلها مدة بقاء اهلها ، فاذا انقرضوا تأسفوا بقدر ما كانوا ، وتنسّفوا وحينئذ لا يجدون الا قليلاً يغيب في كثيرها ، وثماداً يغيض عند بحورها ، ولعمري ان هذه العلة مما صححتُ استغرابها ، واكدت استحسانها واستعذابها »[٢٦] .

رتب الحميري كتابه فجعله على ثلاثة فصول ، جعل الفصل الاول مخصصاً لقطع الربيع التي لم يسم فيها نور ، ولا قصد بوصفها نوع . والفصل الثاني في القطع التي لم تنفرد بنوّار ، وانما اشتملت على نورين او اكثر . مع رسالة لابي حفص بن برد في تفضيل الورد على البهار (النرجس) ، ورسالة ابي الوليد في تفضيل البهار على الورد ، والرد على ابن الرومي في تفضيله البهار على الورد ، ورسالة ابن ادريس الجزيري في بنفسج العامرية ، وقطعة في تفضيل الخيري على البنفسج ، واخرى في تفضيل البنفسج على الخيري .

اما الفصل الثالث فقد خصصه للقطع المنفردة ، كل قطعة منها بنور على حده كالآس والياسمين والبهار وغيرها من ازهار الطبيعة الاندلسية .

كانت هذه الطبيعة المصدر الاساسي الذي استلهم منه الشعراء الاندلسيون افكارهم ، والفيض الزاخر الذي تنبع منه موضوعاتهم ، والسحر المؤثر الذي يشدهم الى التغنّي بها ، ونظرة واحدة الى تلك القصائد والمقطعات الشعرية التي تحاكي الطبيعة ، والتي تزخر بها المصنفات العديدة لتبين لنا مدى اعجاب الاندلسيين بطبيعتهم الجميلة[٢٧] .

٢ ـ نثره :

على الرغم من قلة النصوص والنماذج النثرية التي وردت لابي الوليد الحميري ، فانها غالباً ما تؤشر بعض السمات التي اتصف بها النثر في تلك الفترة ، فقد كان يعتمد على المحسنات اللفظية والمعنوية ، كالسجع والجناس والطباق والمقابلة والتضمين والاقتباس زيّن بها كتابه البديع .

فمن كلامه في السجع ما ورد في مقدمة كتابه ، وهو يتحدث عن انتقاء الاندلسيين للكلام الحسن الجميل ، واهمالهم خشن الكلام على العكس من اهل المشرق قائلاً : « ولاهل المشرق في تأليف اشعار شعرائهم ، وتدوين اخبار علمائهم الفضل علينا والسبق لنا ، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها ، ويضيفون لحنها الى لحنها ، لا قلة ميز بها ، بل تحرجاً عن تركها »[٢٨] .

وقد كثر السجع في نثره حتى لقد طغى على رسائله ونثره ، الاّ انه كان سجعاً خفيفاً لطيفاً ، وكان استخدامه للوسائل الجمالية متفاوت ، ولكنه لاستخدام السجع اميل ، وهو انما يدل على انه ميزة تميزت بها مؤلفات تلك الفترة ونتاجاتها .

اما الجناس التام وغير التام فانه قد استخدمه كوسيلة لتزيين نثره ، او لترصيع كتابه ، فقد كان هو الآخر لا يقل عن السجع في استخدامه ، ويكثر في نثره ايضاً . ومن ذلك استخدامه الجناس في قطعة نثر بعث بها الى صاحب الشرطة ابي الوليد بن العثماني يدعوه فيها لزيارته في بعض ضياعه التي كساها الربيع قائلاً : « فمن مكموم يعبق مِسْكه ولا يمنعه مَسْكه ، ومن باد يروق مجتلاه ويفوق مجتناه في مرآه وريّاه ، فتفضل بالخفوف نحوي وتعجيل اللحاق بي ، لنجدد للانس مغاني قد درستْ ، ونفك من السرور معاني قد اشكلت ، ونشكر للربيع ما ارانا من البديع »[٢٩] .

اما الطباق فانه يظهر اقل استخداماً عنده من السجع والجناس ، فمن ذلك ما ورد في خاتمة مؤلفه : « فربما ادخلتُ لاهل عصري ما يقرب من البديع ولا يبعد عن الرفيع ، فمن نقد ذلك فليعلم أني لم اجهله ، وانما تحفظت من ناظميه ، واغضيتُ لهم على ما فيه ، وليس ذلك الاّ في ابيات يسيرة ، وصفات غير كثيرة »[٣٠] .

والمقابلة تظهر في رسالته التي اردفها على رسالة ابن برد مخاطباً بها القاضي ، وقد بدأ بشهادة البنفسج لانه كان يكتب الصحيفة قائلاً : « والله ما اضعف املي وضاعف عللي ، واوهن سوقي مني وقللني في كل سوق ، الاّ الدخول في تلك الوحول ،

والبعد عن الخلق الكريم »[٣١] . وكذلك في شهادة الخيري النمّام : « والله ما أرّق بصري وارقّ بشري ، واغاض نهاراً ماء بشري ، واغمد فيه سيف نشري الّا معصية الحق في تلك القضية ، وطاعة الهوى في تلك الخطية »[٣٢] .

واستخدم ابو الوليد التضمين في نثره ولا سيما في رسائله ، فضمّن ابياتاً لشعراء المشرق الذين اشتهروا بوصف الطبيعة كابن الرومي وابن المعتز وابي العتاهية[٣٣] ، فمن ذلك تضمينه بيتاً لابن المعتز في رسالته بالرد على رسالة ابن برد قوله : « وافضل تشبيه للورد الخد عند من تشيّع فيه وعني به ، واشرف الحواس العين ، إذ هي على كل منوّلٍ عون ، وليس الخد حاسة فكيف تبلغه رياسة :

اين الخدود من العيون رياسة ونفاسة لولا القياسُ الفاسدُ »[٣٤]

وكذلك ضمّن نثره بعض الامثال العربية ، فمن ذلك تأنيب الخيري الاصفر ، والاقحوان للنواوير الربيعية : « ووالله اننا لاحقّاء بالتأنيب احرياء بالتثريب ، اذ عجلنا عظيمة لم ننعم النظر فيها ، وانفذنا كبيرة لم نعانِ عويص معانيها . وقديماً حمد التأني ، وذمّت العجلة ، ومن امثالهم : رب عجلةٍ تبعث ريثاً »[٣٥] .

اما اقتباسه من القرآن الكريم فقد كان قليلاً ، ومن ذلك ما ورد في مقدمة كتابه اقتباس لآية كريمة من سورة الاحزاب عند ثنائه على فضل القاضي وولده المعتضد : « وعلمتُ كيف اقول ، فجزاهما الله عما يوليان من الايادي الحسان التي تداركتنا ـ وقد بلغت القلوب حناجرها »[٣٦] .

واذا ما بحثنا عن القطع التي خصصت للنثر في كتابه (البديع) فسنجدها تقع في مقدمة كتابه ، وفي رسالتين واحدة لوالده واخرى اردفها في الرد على رسالة ابن برد ، وثلاث قطع نثرية وخاتمة .

ورسالته التي كتبها في تفضيل البهار على الورد رداً على رسالة ابن برد تبدو متأثرة باسلوب ابن برد وطريقة عرضه للموضوع الذي تدور حوله ، وهو اسلوب يقوم على الجدل والمحاورة والمفاضلة بين النواوير وقد شاع في الاندلس آنذاك .

وتقدم لنا رسائل المفاخرات بين الازهار والنواوير لوحة ادبية جميلة فيها شيء من عنصر الخيال . مجموعة من الازهار تجتمع في مجلس واحد وتبدأ كل واحدة منها بالمحاورة والمناقشة حتى تصل الى غاية معينة ، وهي الاتفاق على تنصيب احدى النواوير لتكون مقدّمة عليها ، وتتقدم النواوير الواحدة تلو الاخرى ، فتقدم يمين الطاعة والولاء لها بكلمات رقيقة لا تخلو احياناً من ابيات من الشعر .

والاندلسيون بهذا انما يشبعون رغبة ذاتية في نفوسهم كثيراً ما يصعب تحقيقها على الواقع ، فكانت الطبيعة بما فيها من نواوير وازهار وغيرها الاداة التي استخدموها لتحقيق تلك الرغبة ، واشباع تلك الحاجة . .

شعره :

لابي الوليد الحميري مقطعات شعرية تضمنها كتابه (البديع) ، وكتاب (الذخيرة) لابن بسام ، ولم يرد للحميري ديوان شعر على الرغم من انه كان يقرض الشعر وهو في السابعة عشرة من عمره ، واغراض شعره لا تتعدى المدح والوصف والخمر والغزل .

فالمدح يغلب على اغراضه الشعرية ، وهو موجه الى القاضي محمد بن عباد او الى ابنه الحاجب عباد المعتضد ، او الى والد الشاعر ، او الى احد اصدقائه من الشعراء . والحميري في مدائحه يعتمد على وصف الطبيعة ، ويجعل منها مقدمة لقصيدة المديح بعد ان كان الشعراء يعتمدون على الغزل التقليدي ، ويبدو ان الاندلسيين اكثروا منها حتى عصر الشاعر ، وكانوا يجدون التشجيع في ذلك من الممدوحين انفسهم[٣٧] .

فمن مدائحه التي جاءت في وصف الربيع موصولة بمدح الحاجب ابي عمرو المعتضد قائلاً :

ابشر فقد سفر الثرى عن بشره واتاك ينشرُ ما طوى من نشره

الى ان يقول :

واشكر لآذار بدائع ما ترى من حسن منظره النضير وخبره
شهرٌ كأن الحاجب بن محمد القى عليه مسحةً من بشره
ملكٌ تملك رقنا بمكارمٍ جعلت له غفر النجوم كعفره
لا زال خطبُ زمانه في اسرهِ فلقد رأيتُ به هواي بأسره[٣٨]

وتندمج اوصاف الربيع بما فيه من ازهار ونواوير ، وما تخلقه من جو بهيج ليتحول فيها الزمان والمكان الى هالة من البُشر والسرور ، مع صفات ممدوحه المعتضد من اخلاق واريحية تتضح ذلك في قصائده الاخرى[٣٠] وهذا الاندماج يعبر عن عمق المشاعر وصدق الاحساس عند الشاعر ، غير انه عند مدحه لاصدقائه يضع حداً لهذا الاندماج ، فهو يشبّه تشبيهاً بين جمال الورد او الآس او الخيري وبالفاظ بديعة ومعاني رقيقة ، وبين جمال خلق ممدوحه[٣١] ، ويتضح ذلك عند مدحه لوالده ، وقد وصف الورد :

انما الوردُ في ذرى شجراته ... كأجل الملوك في هيئاته
رائقٌ منظراً وخبراً وفذ ... في حُلاهُ التي حلت وصفاته
نفحةُ المسكِ من شذا نفحاته ... خجلُ الخد من سنا خجلاته
مزجت حمرةُ اليواقيت بالدُّ ... رِّ فجاءت به على حَسْب ذاته
مثلما جاء من سماحٍ وبأسٍ ... خلق الحميريُّ سُمَّ عُداته[٣٢]

اما الوصف ونعني به وصف الربيع ، وما فيه من رياض وازهار ، وانهار وامطار ، فقد شاع ذلك بين الاندلسيين ولا سيما الاشبيليين منهم ، فتغلبت على حواسهم وافئدتهم ، وتسللت الى اغلب فنون الشعر الاخرى من مدح وغزل ورثاء وحنين ، ولما كان شاعرنا اشبيلي النشأة فقد اكثر من هذا الفن الشعري واغرم به . وشاع ذلك بين شعراء اشبيلية وكثرت معارضاتهم ومساجلاتهم .

وعندما انشد الفقيه ابو الحسن بن علي قصيدة ضادية في مدح المعتضد يصف فيها نواوير الربيع بوصف حسن بديع ، عارضها ابو الوليد في موضوعها ووزنها وقافيتها ، ولما سمعها المعتضد امره باستحضار صاحب الشرطة ابي بكر بن القوطية والأديبين ابي جعفر بن الابار وابي بكر بن نصر ، وامرهم بمعارضتها . وهذه القصيدة فيها تشبيه جميل وهي :

انظر الى النهرِ واعجبْ ... لحسن مرآه وأرضهْ
قد حلّ بين رياضٍ ... من النواوير غضّهْ
فيها بهارٌ بهيٌّ ... بدا فزيّن ارضهْ[٣٣]

وهكذا يعدد بقية النواوير الاخرى . واتصلت المعارضة من واحد لآخر ، وكان هذا النوع من التساجل مألوفاً في الادب الاندلسي ، قصيدة تثير الشعراء لمعارضتها ، ورسالة تحفز الكتّاب للرد عليها ، وكتاب يستدعي المصنفين للتذييل عليه .

ولابي الوليد رسالة في تفضيل البهار (النرجس) على الورد وبقية النواوير ، وهي رد على رسالة ابن برد التي يفضل فيها الورد على الازاهير كلها[٣٤] . وقد ضمّن رسالته مقطوعات شعرية كل قطعة تمثل نوعاً من انواع الازهار وهي : البنفسج والخيري النمّام والبهار (النرجس) ، والخيري الاصفر والاقحوان ، وهذه الازهار تتحاور فيما بينها وتتفق على ان تشهد كل واحدة ببيعة البهار ليكون ملكاً عليها ، ويأتي اختيارها للبهار لانه احق بهذه البيعة من الورد . ومن هذه الشهادات البنفسج :

اما البنفسجُ فهو يشهدُ انّهُ ... متذممٌ مما جنى متنصّلُ
مُتبرئٌ من بيعةِ الورد التي ... لم يبْرَ منها داؤهُ المتأصّلُ
مُتبينٌ فضلَ البَهارِ وعالمٌ ... انَّ البهارَ هو المليكُ الافضلُ[٣٥]

وتدل هذه المحاورات بين النواوير على درجة عالية من صفاء الذهن ، وخصب الخيال ، وقوة الربط بين اجزاء الصور العديدة للحصول على صورة واحدة متناسقة . وقد وجدنا ذلك في نصوص الحميري التي يكثر فيها من التشبيهات والاستعارات لاظهار براعة فنه في رسم الصور البسيطة والمركبة .

اما الخمر فان لابي الوليد ثلاث مقطوعات لم نجدها في كتابه البديع ، وانما وجدناها في الذخيرة ، ولم نجد له غيرها في المصادر الاخرى ومن هذه المقطوعات قوله :

وكأسٍ هَا كيس على اللُّب والعقلِ ... شمولٍ تُريك الأُنس مجتمع الشمل
كأنَّ حباب الماء في جنباتها ... دروعُ لُجين قد جلتها يدُ الصقل
تزيدُ ذوي الالباب فضلاً ولم تزلْ ... تُديل بطبع الجود من طَبْع البُخل
غنيتُ بمن اهواهُ عن نشواتها ... فمن طرفه خمري ومن ريقهِ نُقلي[٣٦]

وهذه القطعة يمتزج فيها الخمر بالغزل وقد اضفى عليها ابو الوليد من روحه وحواسه ما يجعل معانيها جديدة وطريفة .

وابو الوليد في جميع اغراضه الشعرية التي مرت بنا يبدو شاعراً موهوباً متمكناً من ناصية الشعر ، ومن الممكن ـ لو امتد به العمر ـ ان يكون احد الشعراء الذين يمكن أن يشار اليهم بالبنان ، الا انه استطاع بكتابه (البديع) ان يضع لبنة جديدة في بناء ادب الطبيعة الاندلسي ، او بالاحرى ادب الربيع . .

هوامش المقدمة

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ٢ / ١١١ تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٩ .

(٢) دوزي : ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ص ٢٠ ترجمة كامل كيلاني مطبعة عيسى الحلبي ـ القاهرة ١٩٣٣ .

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ٣ / ١٩٤ نشره ليفي بروفنسال ، مطبعة بولس كتنر ـ باريس ١٩٣٠ م .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٢٤ .

(٥) ابن الابار : التكملة لكتاب الصلة ١ / ١٨٠ نشره السيد عزة العطار الحسيني ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٥٥ م .

(٦) المصدر السابق ١ / ١٨٠ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ٢٩٨ مطابع سجل العرب ـ القاهرة ١٩٥٥ .

(٨) المقري : نفح الطيب ٢ / ٢٩٠ تحقيق رينهارت دوزي ، ط ليدن ١٨٥٥ ـ ١٨٥٩ م .

(٩) ابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٢٥ ، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١ / ٢٥٠ تحقيق د. شوقي ضيف ، ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ، المقري : نفح الطيب ٢ / ٢٩٠ .

(١٠) الحميدي : جذوة المقتبس ١٥٢ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـ القاهرة ١٩٥٢ .

(١١) المقري : نفح الطيب ٢ / ٢٩٠ .

(١٢) ابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٢٤ ، ابن الابار ، التكملة ١ / ١٨٠ ، المقري : نفح الطيب ٢ / ٢٩٠ .

(١٣) ابن سعيد : المغرب ١ / ٢٥٠ .

(١٤) ابن الابار : التكملة ١ / ١٨٠ .

(١٥) ابن سعيد : المغرب ١ / ٢٥٠ ، وورد في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ان المعتمد بن عباد قتله ، وهذا وهم منه لان المعتمد تسلم الحكم بعد وفاة ابيه المعتضد سنة ٤٦١ هـ فكيف يقتله وكل المصادر تذكر انه توفي سنة ٤٤٠ هـ .

(١٦) ابن بسام : الذخيرة ق١ ٢ / ٢٤ .

(١٧) المصدر السابق ق١ ٢ / ١٠ .

(١٨) د. محمد مجيد السعيد : الشعر في ظل بني عباد ص ٢٣ مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف ١٩٧٢ نقلاً عن : ابن حزم : نقط العروس ص ٧٩ تحقيق د . شوقي ضيف ـ مجلة الآداب ـ جامعة القاهرة المجلد ١٣ ج ٢ ديسمبر ١٩٥١ .

(١٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤ / ١٥٧ ـ دار الطباعة الخديوية ـ بولاق ١٢٨٤ هـ .

(٢٠) ابن الابار : الحلة السيراء ٢ / ٥٣ تحقيق د. حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر بمصر ١٩٦٣ م .

(٢١) ابو الوليد الحميري : البديع في وصف الربيع ص ١ نشره هنري بيريس ـ المطبعة الاقتصادية الرباط ١٩٤٠ م .

(٢٢) المصدر السابق ص ٢ .

(٢٣) المصدر السابق ص ١ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٣ .

(٢٥) د. جودة الركابي : في الادب الاندلسي ص ١٢٧ ط دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .

(٢٦) الحميري : البديع ص ١ ـ ٢ .

(٢٧) احمد حاجم الربيعي : الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد ١٩٨٣ .

(٢٨) الحميري : البديع ص ٢ .

(٢٩) المصدر السابق ص ٣٠ .

(٣٠) المصدر السابق ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٣١) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣٣) ينظر البديع ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٥ .

(٣٤) الحميري : البديع ص ٦٠ .

(٣٥) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٣٦) المصدر السابق ص ٤ والآية ٣٣ من سورة الاحزاب (حتى اذا بلغت القلوب الحناجر) .

(٣٧) د. احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ ص ١٩٦ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٢ م .

(٣٨) الحميري : البديع ص ٢٦ ـ ٢٧ ، والحميدي : جذوة المقتبس ص ١٥٢ والضبي : بغية الملتمس ص ٢١٤ مطبع روخس ـ مدريد ١٨٨٤ م .

(٣٩) ينظر البديع ص ١١٩ ، ١٣٨ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٨٨ ، ١١٤ ، ١٢٨ .

(٤١) المصدر السابق ص ١٢٩ ، وابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٢ .

(٤٢) الحميري : البديع ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٤٣) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٤٥) ابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٤ .

شـــعره :

ـ حرف الهمزة ـ

(١)

ومن الفائت الفائق والرائع الرائق في وصف الأس قطعة خاطب بها الوزيرُ ابو عامر بن مسلمة الاديب ابا الوليد الحميري وبعث معها مطيباً واولها : (كامل)

يـا واحدَ الأدبـاءِ والشعـراءِ وابنَ الكرامِ السّادةِ النُّجباءِ

فجاوبه عن هذه الالفاظ البديعة ، والمعـاني الرفيعـة بما يمكن ان يدخل في هذا الباب :

١ـ يا مَنْ حبوتَ بودّهِ حوباءِ وهي الفداءُ له من الأسواءِ
٢ـ وصلَ المطيّبُ مُعرباً عن طيبِـ ـهِ (مِنْ) اهداهُ مكتبثاً من الاهداءِ
٣ـ اظميتهُ من بعدما ارويتهُ بمُـدامـة فيهـا دواءُ الـدّاءِ
٤ـ ما كانَ اشهرَ طيبَه لولم يكنْ مُتنشّراً بـالقـطعـة الغـرّاءِ
٥ـ ارين عليه نظمُك الحُلْوُ الحُلى فـانحطَّ بعد الـرتبة العليـاءِ
٦ـ إنْ كان نورُ الأسِ في وَرَقاته نـوراً بـدا في لـيـلةٍ ظـلماءِ
٧ـ فجمالُ خلقِك حين ينظم عقدهِ كالبدر ينـظم انجمَ الجوزاءِ

ـ حرف الألف ـ

(٢)

ولـه رسالـة في الرد عـلى رسالـة ابن برد ، وقـد ضمنّها شهـادات النواويـر ومن تلك الشهـادات شهـادة الاقحـوان :

(منـسرح)

١ـ أشهدُ الأقحوانُ انّ جناهُ كـافـرٌ بـالـذي سـواهُ جنـاهُ
٢ـ قائلٌ قولَ من تبرّأ قِـدْماً مِنْ هوى مَنْ قضى عليهِ هواهُ
٣ـ إنّ نَوْرَ الرُّبى عبيـدٌ وكُلٌّ للبهـارِ البهيّ يقـضي وَلاهُ

ـ حرف الباء ـ

(٣)

قال ابو الوليد : وبعث اليّ صاحب الشرطة ابو الوليد بن العثماني مُطيّب خيري مبكر ، وكتب معه قطعة نثر مقتطعة من السحر ، فجاوبته بقطعة وقد صنعتُ فيها ابياتاً بديهية متأخرة ، فاغض على ما فيها محسناً الى مهديها . وهي : (سريع)

١ـ نهارُ خيـريـكَ في ليـلهِ كـذلـكَ اللّيـلُ نهارُ الأديبْ
٢ـ يَنمُ فيـه وينـامُ الضُحى تصـاوناً عن كـلِّ امرٍ مَغيبْ
٣ـ كـأنّما اللّيـلُ حبيبٌ لـهُ فهو اذا حلَّ اكتسى كلَّ طيبْ
٤ـ كـأنّما الصُّبـحُ رقيبٌ لـهُ فيرعوي عند طلوعِ الرَّقيبْ

ـ حرف التاء ـ

(٤)

قال ابو الوليد : ولي في الورد قطعة موصولة بمدح ابي ـ ابقى الله عليّ ظلّه ، وقدمتي الى المنون قبله ـ وهي : (خفيف)

انّما الوردُ في ذُرى شجراتهِ كـأجَلّ الملوكِ في هَيْـئـاتِـهْ
رائقٌ منـظراً وخُبـراً وفـدٌّ في حُلاهُ التي حَلَتْ وصفاتهْ
نفحةُ المِسْكِ من شذا نفحاته خجَلُ الخدّ من سنا خَجَـلاتِهْ
مُزجتْ حُمرةُ اليـواقيتِ بالـدُّ رِّ فجاءتْ به على حَسَبِ ذاتِهْ
مثلما جاء من سماحٍ وبأسٍ خُلُقُ الحميريّ سُمّ عُداتِـهْ
إنْ يعِـدْ فالـوفاءُ حتمٌ عليـهِ فـرْضُهُ في صِـلاتهِ كصَـلاتِهْ

ـ حرف الحاء ـ

(٥)

قال ابو الوليد : ولي في الخُرّم تشبيه طابقه وهو : (رجز)

١ـ وخُـرّمٍ حُـلوِ الحُـلى يبـدو لعَيْنيْ مَـنْ لَمَـحْ
٢ـ تـلـوُّنـاً ومـنـظـراً كـأنّـهُ قـوسُ قُـزَحْ

ـ حرف الدال ـ

(٦)

وله من رسالة في الرد على رسالة ابن برد شهادة الخيري

الاصفر : (رمل)

١ـ اصفرُ الخيريّ يشهدْ أنّ عقْدَ الوردِ قد رُدْ
٢ـ ويرى انّ البهارَ الـ ـمُنتفى اغلى وامجد
٣ـ ملكٌ يقظانُ يأتي وصُنوفُ النُّورِ هُجّدْ

١ـ وقهوةٍ لا يجيدها مبصرْ راقتْ ورقّت في اعينُ النُظّرْ
٢ـ اذا رنتْ فالسرور مبتسمٌ وإنْ نأتْ فالسرور مستعبرْ
٣ـ كأنها والحباب يحجبُها بحر من التبر يقذف الجوهرْ
٤ـ غنيتُ عنها فلستُ اقربها بناظرٍ منهُ يُسكر المُنْكِرْ

(٧)

قال ابو الوليد : ولي قطعة في النرجس موصولة بمدح ذي الوزارتين عبّاد ـ وصل الله حرمته واطال مدته ـ وهي : (طويل)

وروضٍ أريضٍ لم يزلْ يغتذي بما يروحُ عليهِ من سحابٍ ويغتدي
بدا النرجسُ المُصفرُّ فيه مُباهياً بلونٍ كلون المُتهامِ المُهدِ
ترى كُلَّ نَورٍ منهُ فوقَ قضيبهِ كلمّة تِبْرٍ فوق جيدٍ زبرْجَدِ
اذا ما سرى منهُ نسيمٌ لوالِهٍ سرى عنه جلبابُ الجوى المتوقدِ
حكى منظراً نضراً وخُبراً خلائق النُجيب أبي عمرو سليلِ مُحمّدِ
فداهُ عِداهُ كم لهُ مِنْ فضيلةٍ وفضلٍ ندىً يُغني به كلَّ مُجتدي

(٨)

قال ابو الوليد : ولي في الباقلاء تشبيه ربما يوافق ، وتمثيل كأنه يطابق وهو : (طويل)

أرى الباقلاءَ الباقلَ اللّون لابساً برودَ سماءٍ مِنْ سحائبها غُدْيِ
ترى نَوْرَهُ يلتاحُ في ورقاتهِ كبُلْقِ جيادٍ في جِلال زُمرُّدِ

ـ حرف الراء ـ

(٩)

وقال : ـ (منسرح)

(١٠)

وله ايضاً في وصف الربيع : (كامل)

بكتِ السماءُ فأضحكت سنَّ الثرى بمدامعٍ نظمتْ عليه جوهرا
فكأنها خرقاء تنثر عِقدَها وكأنه مُستغنم أن يُنثرا
عكفتْ يداه على نظام فريده وجمانه فَرْداً لذاك مُشمراً
واعاده ايمنَ لطرف منظراً وأعدّه اذكى لأنف مُخبَرا
فانظر محاسن للربيع تبرّجتْ لولا الربيعُ لما تجلّتْ للورى

(١١)

قال ابو الوليد : ولي في الجلنار قطعة ربما وافقت صفته ، وطابقت هيأته وهي : (مجتث)

١ـ وجُلّنارٍ تَبدّى يختال في جُلِ نارِ
٢ـ احلى حُلى من جميع الانوارِ والازهارِ
٣ـ حكى خدود العذارى قد شُرّبتْ باحمرارِ
٤ـ وخمشتْ باكُفّ الالحاظ والابصارِ

(١٢)

وخاطب اباه برسالة فيها بعض اصناف اوصاف الربيع يطلب منه السماح له بالخروج للتمتع بمباهج النواوير التي كست الارض حللاً ، وملأتها مسكاً وعنبراً . قال : (بسيط)

فالأرض في بردةٍ من يانعِ الزّهرِ تُزري إذا قِسْتها بالوشي والخِبَرِ

قد احكمتها أكف المزن واكفةً وطرّزتها بما تُهمي من الدّرر
تبرّجت فسبتْ منا العيون هوى وفتنةً بعد طولِ السّتر والخَفَرِ

(١٣)

قال ابو الوليد : ودخلتُ بستاناً لي مع الفقيه ابي الحسن بن علي ، وكان بها باقلاء قد نوّر فاخذ من نَوره ، وصنع مصراعاً وسألني إجازته ففعلت وزدت بيتاً آخر .

ومصراعه : (رمل)

سَبجٌ في كاسِ دُرّ او كسوفٌ وسْطَ بدرِ

وزيادتي :

أوْ غزالٍ في لآلٍ أوْ غشاءٌ بينَ فَجْرِ

(١٤)

قال ابو الوليد : ولي في شقائق النعمان (الشقر) بيتان ربما انفردا بتشبيه وهما : (طويل)

رياضٌ يُحيّيها الحَيا بانسكابهِ فَتسْفِر للنُظّار عن منظر نضْرِ
. . . تْ فيها الشّقائقُ خِلْتَها شعور العذارى لحْنَ في الخُمر الخُضرِ

(١٥)

قال ابو الوليد : ولي في لوني النيلوفر وصف ربما طابق ، وتمثيل عساه وافق وهو : (مجتث)

١ـ وروضةٍ رَضيتْ عنْ صوبِ الحيا المُستَمرِ
٢ـ فأظهرتْ نَوْرَ نَيْلو فرٍ مُنيرٍ أغرّ
٣ـ كمِخبَرٍ من جُبينٍ فيهِ بقيّةُ حِبْرِ

(١٦)

قال ابو الوليد : ومما قلته في هذا المعنى ـ ويعني وصف الربيع ـ قطعة موصولة بمدح الحاجب ـ اطال الله بقاءه ، وحرس حوباء وهي : (كامل)

أبشر فقد سفر الثرى عن بشرهِ وأتاك ينشرُ ما طوى من نشرهِ
متحصناً من حسنهِ في معقلٍ عقلَ العيون على رعايةِ زهرهِ
فضّ الربيع ختامه فبدا لنا ما كان من سرّائه في سرّهِ
من بعد ما سحبَ السحابُ ذيوله فيه ودرَّ عليه أنفس دُرّهِ
فاجلِ جفونكَ فيه تجلُ صَدأ بها لولا انبراءُ جماله لم تبرهِ
واشكُرْ لأذارٍ بدائع ما ترى من حسنِ منظره النضير وخُبرهِ
شهرٌ كأن الحاجب بنَ محمد ألقى عليه مسحةً من بشرهِ
ملكٌ تملّكَ رقّنا بمكارمٍ جعلتْ له غفر النجوم كمفرهِ
لا زال خطبُ زمانه في اسرهِ فلقد رأيتُ به هوايَ بأسرهِ

ـ حرف السين ـ

(١٧)

قال ابو الوليد : ولي في نور الكتان قطعة : (منسرح)

كأنّ نَوْرَ الكتّانِ حين بدا وقد جلا حُسْنُهُ صدا الأنفُسْ
أكُفُّ فيروزَجٍ معاصمُها قد سترتهنّ خُضرةُ الملبَسْ
أوْ لا فَرِيقُ الياقوتِ قد وضعت على بساطٍ تروقُ من سُندسْ

ـ حرف الضاد ـ

(١٨)

ولما بلغ ابا الوليد ان الفقيه ابا الحسن بن علي وضع قصيدة ضادية يصف فيها نواوير الربيع بوصف حسن بديع ، صنع قصيدة على ذلك النحو وقد ذكر منها قطعة هي : (مجتث)

١ـ انظرْ الى النّهر واعجبْ لحسنِ مرآه وأرضهْ

٢ـ قد حلّ بين رياضٍ من النواوير غضّهْ
٣ـ فيها بهارٌ بهيٌّ بدا فزيّن أرضهْ
٤ـ كأنّه جِيدُ تِبرٍ يلوح في طوقِ فضهْ
٥ـ ونرجسٌ مثل لون المهجور فارقَ غمضهْ
٦ـ واقحوانٌ أنيقٌ برودُهُ مُبْيَضّهْ
٧ـ قد طرّزتْها بتبرٍ عينُ الندى المرْفضّهْ
٨ـ وباقلاءٌ قد أبدى بنَوره الحسْنَ غضّهْ
٩ـ كأنما هو خالٌ بخدّ بيضاءَ بضّهْ
١٠ـ كأنما النهر أفق السماء عانقَ أرضهْ
١١ـ وقد كسا عُدوَتيهِ من الأزاهر غضّهْ
١٢ـ كما ابن عبّاد النّدْ بُ قد كسا الصون عرضهْ
١٣ـ سَمْحٌ على المال فظٌّ دأباً يجدّد فضّهْ
١٤ـ له من الجاهِ حظٌّ على التواضُع غضّهْ

ـ حرف العين ـ

(١٩)

قال ابو الوليد : ولي في بركة عليها اقحوان تشبيه تضمّنه بيتان وهما : (متقارب)

١ـ . . . . بالثّرى صَيْرفيٌّ لهُ نُطوعٌ من اللاّزَوَرْدِ البديعْ
٢ـ . . . . بٌ فيه من الأقحوا ن درهمٌ من ضرب كفّ الربيعْ

ـ حرف القاف ـ

(٢٠)

ومن نظمه شهادة النرجس : (رمل)

١ـ أشهدَ النّرجسُ أشهادَ مُحِقْ أنّ بدرَ الوردِ في المُلكِ مُحِقْ
٢ـ ورأى أنّ البهارَ المُجتلىٰ في سماءِ الحُسنِ بالمُلكِ أحقْ
٣ـ فمتىٰ كُذّبَ قولٌ أبداً قيلَ في قولتهِ هذي صَدَقْ

(٢١)

قال ابو الوليد : واهدى اليّ صاحب الشرطة ابو بكر بن القوطية ثلاث وردات ليلة المهرجان ، وكتب اليّ معها ابياتاً انيقة المعنى دقيقة المغزى ، فلما وردت الورد الثلاثُ عليّ ووصلت اليّ بعثت بها الى ابي وقاه الله بي ، وكتبت اليه معها اربعة ابيات بديهة : (كامل)

١ـ يا من تأزّر بالمكارمِ وارتدىٰ بالمجدِ والفضْلِ الرفيعِ الفائقِ
٢ـ انظرْ الى خدّ الربيع مركّباً في وجه هذا المهرجان الرائقِ
٣ـ وردٌ تقدّمَ اذْ تأخرّ واغتدىٰ في الحسن والاحسان اولّ سابقِ
٤ـ وافاكَ مشتملاً بثوبِ حيائهِ خجلاً لأن حيائه آخرُ لاحقِ

ـ حرف اللام ـ

(٢٢)

ومن نظمه شهادة البنفسج : (كامل)

١ـ امّا البنفسجُ فهو يشهدُ أنّهُ مُتذمّمٌ نمّا جنىٰ متنصّلُ
٢ـ متبرّىءٌ من بيعةِ الوردِ التي لم يَبْرَ منها داؤهُ المتأصّلُ
٣ـ متبيّنٌ فضلَ البهارِ وعالمٌ انّ البهارَ هو المليكُ الافضلُ

(٢٣)

ومن نظمه ايضاً شهادة الخيري (النمّام) : (رمل)

١ـ أشهدَ الخيريُّ أنّ الخير في نقضِ ما اخطأ فيهِ اوّلا
٢ـ موقناً أنّ البهارَ المرتضىٰ بَهرَ الاملاكَ حالاً وحُلا
٣ـ فهوَ الموقظُ انوارَ الرُّبا من سناتٍ سنّها فيها البلا

(٢٤)

وقال : (طويل)

وكأسٍ لها كيْسٌ على اللُّبِ والعقلِ شمولٍ تُريك الأُنسَ مجتمعَ الشّملِ
كأن حبابَ الماء في جنباتها دروعُ جُينٍ قد جللّتها يدُ الصّقلِ
تزيدُ ذوي الالباب فضلاً ولم تزلْ تُديل بطبْع الجود من طَبْعِ البخلِ
غنيتُ بمن اهواهُ عن نشواتها فمن طرفه خمري ومن ريقهِ نُقلي

(٢٥)

وقال ايضاً : (متقارب)

١ـ حمامٌ بلحظك قد حُمّ لي فما زال يهدي الى مقتلي
٢ـ وإنْ لمْ تغثني بمعنىٰ الحياة من ريقِ مبسمك السلسلِ
٣ـ فها أنا قاضٍ بداء الهوى وقاضي جمالك لم يعدلِ
٤ـ فيا ليت قبري حيث الهوى فاكرِمْ بذلك من منزلِ
٥ـ عسىٰ من تلفتُ بحبي له يرقّ على ذي بلاءٍ بلي
٦ـ فإن جاد بالوصل بعد الوفاةِ رجعتُ الى عيشي الأولِ
٧ـ فيا صاحبيَّ هناك احفرا ولا تحفرا لي بقُطْرَ بُلِ
٨ـ إذا ما أدرت كؤوسَ الهوى ففي شربها لستُ بالمؤتلِ

٩ـ مُدامٌ تعتّق بالناظرين وتلك تعتّق بالأرجلِ

ـ حرف الميم ـ

(٢٦)

قال ابو الوليد : لما كثر الكلام في تفضيل الخيري الأصفر صنعت قطعة ربما كان فيها بعض الرد على من فضله ، وبخس النمام اكثر حقه ، ولم يرع حسن خَلقه وخُلقه . وهي : (كامل)

يا من يذُم خلائق النمّامِ ويحطُّهُ عن خطّة الاكرامِ
قذكَ انتدْ عن لومهِ جهلاً به فجمالُه زارٍ على اللُّوامِ
هو اشهرُ الخيريّ حُسناً فاحبُهُ من بينهِ بتحيّةٍ وسلامِ
متنزّهٌ عنْ أنْ يُرى مُستهتراً الاّ اذا اكتحل الورى بمنامِ
مُستطرفٌ في خلقه مُستظرفٌ في خُلقه مُستحسَنٍ ألالمامِ
لم يرض إلاّلمسكُ مَسْكاًجسمُهُ وبهِ يبوح اليكَ في الاظلامِ

والمُنتمي ابداً اليهِ قُصارُهُ في الفضلِ انْ يُعزى الى النمّامِ
إصفرُ من حسدٍ له وكآبةٍ لما شآهُ بحُسنه البسّامِ

أيقاسُ مُنفردٌ بطرفٍ مُعجزٍ بمشاركٍ اخلاق نوْر العامِ
لو كانت الشمس المنيرةُ سرمداً لم تُلقَ بالاجلالِ والاعظامِ

ـ حرف النون ـ

(٢٧)

قال ابو الوليد : ولي في السوسن قطعة فيها اختراع تشبيه ، وصلتها بمدح الحاجب ـ حجبه الله بي عن النوائب ـ وهي : (مجتث)

١ـ وسوسنٍ يتهادى للانس بالراحتينِ
٢ـ نعمَ المواصلُ لو لمْ يُعدْ بنايٍ وبَينِ
٣ـ كأنما خلقهُ الفد خَمْسةٌ من لُجينِ
٤ـ او أنمُلٌ بضّةٌ ما تركّبتْ في يَدينِ
٥ـ وبينها حارسٌ لا ينامُ طرفةَ عَينِ
٦ـ علا واشرفَ منها على جمالٍ وزَينِ
٧ـ كما علا الحاجبُ المُنتقى على الشّعرينِ
٨ـ مَلكٌ به حالَ دهري بينَ الخُطوبِ وبَيني

هوامش النص

(١) الحميري : البديع ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٦٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١١٤ .
(٤) المصدر السابق ص ١٢٩ ، وابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٢ عدا البيت الثاني .
(٥) الحميري : البديع ص ١٤٠ .
(٦) المصدر السابق ص ٦٧ .
(٧) المصدر السابق ص ١١٩ .
(٨) المصدر السابق ص ١٥٥ ، وابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٣ ، والمقري : نفح الطيب ٢ / ٢٩٠ البيت الاول في الذخيرة والنفح (اذ الياقلاء . . لبرد سماء) .
(٩) ابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٣ .
(١٠) الحميري : البديع ص ٢٧ .
(١١) المصدر السابق ص ١٦٠ .
(١٢) المصدر السابق ص ٢٩ ، وابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٢٦ .
(١٣) الحميري : البديع ص ١٥٥ .
(١٤) المصدر السابق ص ١٥٣ وفي البيت الثاني بياض في الاصل .
(١٥) المصدر السابق ص ١٤٧ .
(١٦) المصدر السابق ص ٢٦ ـ ٢٧ ، والابيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) وردت في جذوة المقتبس ص ١٥٢ وفيها البيت السادس (فاشكر) ، ووردت الابيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) ايضاً في بغية الملتمس ص ٢١٣ وفيها البيت الثالث (فضل الربيع) ، ووردت الابيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧) ايضاً في معجم الادباء ٧ / ١٤٣ .
(١٧) الحميري : البديع ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ووردت في الذخيرة ق ٢ ١ / ١٣٣ بكسر القافية .
(١٨) الحميري : البديع ص ٤١ ـ ٤٢ .
(١٩) المصدر السابق ص ١٥٠ ـ ١٥١ وفي البيت الاول والثاني بياض في الاصل .
(٢٠) المصدر السابق ص ٦٥ .
(٢١) المصدر السابق ص ١٢٨ ، وابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٢ ، والمقري : نفح الطيب ٢ / ٢٩٠ .
(٢٢) الحميري : البديع ص ٦٥ .
(٢٣) المصدر السابق ص ٦٦ .
(٢٤) ابن بسام : الذخيرة ق١ ١ / ١٣٤ .
(٢٥) المصدر السابق ق١ ١ / ١٣٤ ـ ١٣٥ ، وورد البيتان (٨ ، ٩) في المغرب لابن سعيد ١ / ٢٥٠ ، ووردا ايضاً في رايات المبرزين لابن سعيد ص ٣٩ وفيه البيت الثامن (اذا ما ادرت مدام الخدود . .) ، ووردا ايضا في نفح الطيب للمقري ٢ / ٢٩٠ وفيه البيت الثامن (اذا ما رأيت كؤوس الهوى ـ ففي شربها لست بالمرقل) .
(٢٦) الحميري : البديع ص ٨٥ .
(٢٧) المصدر السابق ص ١٣٨ .